



## صورة المرأة في الشعر الأندلسي (دراسة وصفية)

هناء حمّاد

جامعة الزاوية / كلية التربية بأبي عيسى

[h.hammad@zu.edu.ly](mailto:h.hammad@zu.edu.ly)

تاريخ الاستلام: 2026/02/16 - تاريخ المراجعة: 2026/03/13 - تاريخ القبول: 2026/03/14 - تاريخ للنشر: 2026/04/28

## مقدمة:

كان الشعراء في الأندلس ينفسون بشعر الغزل عن الحب الذي اختزنوه في قلوبهم، وعن الحرمان الممض الذي أفضّ مضاجعهم، وعن الشوق الذي يجدونه في نفوسهم، فكانوا يفتنون في وصف مفاتن النساء الجسدية والنفسيّة، وربط هذه المشاعر بكل ما وقعت عليه أعينهم وخاصةً في تلك البيئة الخصبة والجديدة، ولما كان الشعر له صلة بالشعور والطبع واختلاف الظروف من وقتٍ لآخر، لذا بدأت صورة المرأة تظهر جليّة عند كثير من الشعراء العرب في أسبانيا على الرغم كثرة الحروب والأزمات السياسية، فقد ارتبطت صورة الأم والأخت والحبيبة والأبنة والجارية وغيرها من أنواع النساء بالرجل الشاعر سواءً أكان من عامة الناس أو من أصحاب الجاه والسلطان، وهذه الصورة تمثلت في أغراض معينة مثل الغزل والمدح والمجاء والرثاء، أما بقية الأغراض فنادرًا ما قيل فيها، والمرأة الأندلسية في الحياة والأدب ليست إضافة تكميليّة للتاريخ العربي في أسبانيا، بل هي عامل أساسي للنهضة والفكر وإبداع الشعراء ومسيرة حقيقية للتاريخ<sup>1</sup>، ومن هذا المنطلق اخترنا هذا العنوان المتواضع لبحثنا لما له من الأهمية الكبيرة في حياة كل امرأة عربية تعتر بالماضي لتأخذ منه عبرة للغد، كما تكمن أهمية هذه الدراسة في الآثار العظيمة التي تركتها المرأة في أسبانيا والتي تحمل كمية من العلم والثقافة المختلفة، وأما أسباب اختيار الموضوع فترجع إلى شغفي الشديد بالتطلع إلى دراسة ما تركه العرب الشعراء والشاعرات من شعر وأدب راقٍ، كما أن دراسة شعر المرأة بصفة خاصة له أثر كيمي في نفسي، كذلك كشف بعض الملابس التي وجهت ضد المرأة والشعر الذي قيل فيه، والتفريق بين المرأة العربية الحرة والمرأة المستعبدة، هذه الأسباب جعلتني أكتف البحث وتجميع المصادر والمراجع للبحث والدراسة عنها، وقد قسمت البحث إلى ثلاث مباحث وخاتمة مكللة ببعض النتائج العلمية التي أن أدم كل جديد ومفيد، فإن كان صواباً فهو بتوفيق من الله، وإن أصابه الخطأ أو الزلل فهو من نفسي والله ولي التوفيق النتائج التي حاولنا أن نقدم فيها كل جديد ومفيد.

**تمهيد:** نجد أن الشاعر الأندلسي قد كرس جل أشعاره من أجل المرأة وتغني بها في أمجى صورها، فكان للحرائر نصيب كبير وللجواري النصيب الأكبر، وقد استلهم الشعراء الأندلسيين من جمال المرأة ورقتها ما جعلهم ينظمون شعراً ينافس المشاركة، حيث جاءت كثرة الأشعار في الحبيبة؛ لأن أبناء الملوك كانوا أغلبهم من الشعراء فعاشوا عيشة هائلة مترفة تحت ظل المرأة التي ملكت قلوبهم، كما أن الطبيعة الجميلة التي نعمت بها البلاد ذاتها والحياة الحضريّة الناعمة ومجالس الأناج والرخاء كانت أحد أسباب انسياب عامل الشعر وتكاثر أغراضه في التحدث عنها، ومع بداية عصر ملوك الطوائف اتخذ الشعر سلم الصعود من ذي قبل في عصر الإمامة والخلافة، وأصبح أكثر إنتاجاً وغازة، وظل على هذا المنوال في العصور اللاحقة كسمة مميزة للملوك بعد أن كان أكثر تداولاً على ألسنة الشعراء وخاصة شعر الغزل، لذا اكتسب شهرة واسعة كما سندرسه لاحقاً في المباحث الآتية.

**المبحث الأول: 1: صورة الحبيبة في شعر الملوك والعامة من الشعراء:** أخذ حديث الغزل من نظم الشعراء الأندلسيين مكاناً رجباً حيث عبّرت قرائحهم الشعرية عن عواطفهم تجاه المرأة وفرحهم بلقائهم في جميع صورها وظروفها، وقد

استلهم الشعراء ملوكاً كانوا أو أفراد مجتمعٍ بعامّة من الشعراء من جمال الحبيبة ورقتها ما جعلهم ينظمون شعراً يذبح قرائح القلوب عشقاً وهياماً بتلك النساء الجميلات، حيث احتلت الحبيبة مكانة رفيعة عندهم وربما كان للشاعر حبيبة قبل أن تكون امرأة عادية، فقد ملكت قلبه ووجدانه ولا يرى طيباً للعيش من غيرها، يقول ابن زيدون:

حَتَّى اللَّهُ يَوْمًا لَسْتُ فِيهِ بِمُنْتَقِي      مُخِيَاكَ مِنْ أَهْلِ النَّوَى وَ النَّفَرِي  
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ دُونَ مَسْرَةٍ      وَأَيُّ سُورٍ لِلْكَئِيبِ الْمُسُورِقِ<sup>2</sup>

1 : لغة الأدب والشعر في كتابات المرأة العربية/ لوسي يعقوب/ منشورات الدار العربية للكتاب ط1/ 1412هـ - 2001م/ص50  
2 : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/د. مريم قاسم الطويل/ منشورات دار الكتب العلمية. بيروت/ ط5/ 1999م/ 5/ 338.

وللشاعر أشعر كثيرة في التغيي والبكاء على ولادة بنت الخليفة المستكفي التي بجمالها سلبت عقله قبل قلبه، كما نرى ابن خفاجة الأندلسي قد شغف بالمرأة وتغزل بها في أشعار رائعة تذيب القلب، هذه الأشعار مقرونة بالطبيعة حتى لقب بشاعر الجنان، يقول:

يَا بَانَةً تَهْتَزُّ فَيَنَانَةً      وَرَوْضَةً تَنْفُحُ مِعْطَارَا  
لِلَّهِ أَعْطَاكَ مِنْ حُوطَةٍ      وَحَبَدًا مِنْ نُورِكَ النَّوْرَا<sup>1</sup>

ولم يقتصر الأمر كما أسلفنا في الحب والتذلل للحبيبة على الشعراء فقط بل كان للملوك والأمراء نصيب فيه، وتحوله من ملك إلى مملوك يقو الحكم الربضي:

ظَلَّ مِنْ فَرَطٍ حُبِّهِ مَمْلُكًا      وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مَلِيكًا<sup>2</sup>

كما يقول الملك يوسف الثالث عن سحر العيون التي تعد مثل السيوف الهندية الحادة القطع التي مزقت بلحظها، وثقب غورها أوصاله، وطبعت في القلب الذي أصبح مرهون لهذه النظرات غصة لا تنتهي:

أَحَاطَهُ كَسِيوْفُ الْهِنْدِ مَا ضِيَّه      لَهَا بِقَلْبِي وَإِنْ سَأَلَهُ أَثَرُ<sup>3</sup>

ومنه أيضاً قول ابن زمرك لحبيته كوصف القدماء الجاهليين في المشرق العربي، فتحدّث عن القوام المشقوق وعن الغنج والدلال وجمال العينين بتلك النظرة القاتلة:

فَطَعَنْتُ مِنْ قَدِ الْقَوَامِ بِأَسْمَرٍ      وَرَمَيْتُ مِنْ غِنَجِ اللَّحَاظِ بِأَسْهَمٍ<sup>4</sup>

والمرأة في شعر الأندلسيين ذكرت بجميع الأوصاف المادية والحسية منها ما كان حياً صادقاً كحب ابن زيدون لولادة ومنها ما كان أوصافاً حسية دون الخوض في بحر العشق والهيام، وفي ذلك يقول المقرئ في كتابه نفع الطيب عن الشعراء: "أهم إذا تغلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قوداً، ومن قلوب اللوز وتغور الأقاح مباسم"<sup>5</sup>، وهم في أوصاف الحبيبة أو العشيقة قصائد جميلة كوصف جسدها من الشعر حتى أحص القدم وخاصة في عصر بني الأحمر وعصر الطوائف والمرابطين، وهذه الأوصاف كانت في الحرائر والجواري، وقد ابتعدوا عن الألفاظ الفاحشة والتزموا حدود الأدب والأخلاق، وهذا ما جعل شعرهم ينتشر ويبقى إلى يومنا هذا، وقد ربطوا المرأة بالطبيعة الرائعة التي زانت تلك البيئة، فيصف الشاعر ابتسامتها التي جمعت مظاهر الطبيعة من شمس وبدر ودجى، يقول ابن فركون:

هِيَ الشَّمْسُ يَسْتَجْلِي سَنَاها وَقَدْ عَدَا      لَهَا البَدْرُ والجُوزَاءُ قَرطاً وَدَمَلَجَا  
فَمَنْ لَمْ يُشَاهِدْ وَجْهَهَا وَقَوَامَهَا      فَمَا البَدْرُ مَلْتَاخَا وَلَا العُصْنُ رَجْرَجَا<sup>6</sup>

ومثلما كان للحب والعشق والهيام والحزن والحسرة والبكاء عند جفوة اللقاء نصيب في شعرهم، كان أيضاً لغدر بعض النساء وخيانتهم للعهد والميثاق بينهم لأجل مصلحة خاصة، ومكرهن وبخلهن وقساوتهن وغيرها من الصفات التي اجتمعت في البعض منهن، والتي ذكر منها الشعراء كصدها عنه على الرغم من وفاؤه لها قال يوسف الثالث في ذلك:

أَرَاكَ مَلِي الوِصَالِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ      وَتُوْصِلُ هَجْرِي طَالِمَا وَتَعْتَبِي  
وَتَطْلُبِي قَلْبِي بِالصَّدُودِ وَبِالْقَلْبِي      كَأَنِّي ذُو ذَنْبٍ وَلَسْتُ بِمُذْنَبٍ  
فَهَلَّا مَلَّتِ الهَجْرَ يَا مُنْتَهَى الهَوَى      وَأَوْصَلْتِ وَصْلِي وَاجْتَنَبْتِي تَجْنَبِي<sup>7</sup>

ومن الشعراء أيضاً من ذم حالية عاطلة الخلق، كابن خفاجة في قوله:

أَلَا أَبْكِي الدَّرَّ فَوْقَ حَالِيَةٍ      حَلَى بِهَا العِقْدُ شَرَّ مَحَلَى  
تَرَى بِمَا يَمُرُّ خُلُقِي      مُجْبَأً تَحْتَ مَنْظَرٍ يَحْلَى  
قَدْ رَأَى مَرَأَى وَسَاءَ مُجْتَبِراً      فَهَلْ تَرَى أَزْهَدَتْ بِهَا دُفْلَى<sup>8</sup>

1 : نساء من الأندلس/ أحمد خليل/ص 14

2 : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف/ هنري بيرس/ص360.

3 : ينظر: ديوان الملك يوسف الثالث/ص60.

4 : ديوان ابن زمرك/ ص 91.

5 : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/ المقرئ ( أحمد بن محمد المقرئ التلمساني)/تح: إحسان عباس/بيروت دار

صادر/1968م/ج1/ص323.

66 ديوان ابن فركون/ص193/ والجوزاء: نجم يقال أنه في السماء له شكل معين يختلف عن بقية النجم/ قرطاً: ما تنزير به المرأة في الأذن بالوان وتشكيلات مختلفة.

7 : ديوان الملك يوسف الثالث/ ص 178.

8: ديوان ابن خفاجة/ص335.

فليس كل امرأة صادقة أو غادرة وخائنة فالنساء في أسبانيا ينقسمن قسمين: الأول الجارية وما قيل فيها، والثاني المرأة الأصيلة ابنة الملوك والوجهاء، فالأولى يعينها المال والمجوهرات والملك أي الجانب المادي وهو جزء من طبعها، بينما الثانية التي كما يتمنى الشاعر وصلها تمنى هي أيضاً ذلك، ولكنها تخشى إن فعلت ذلك يكون عاقبتها فيه وخيماً، فهي هنا من تخشى العذر والفضيحة وإهدار كرامتها بين الأهل والمجتمع، ففي الثانية ليس غدرًا؛ إنما نتيجة طبيعية لما تعيشه من تحديات الزمن آنذاك، والشعراء يعلمون ذلك ويعانونه، وخبر مثال على ذلك قصة ولادة بنت الخليفة المستكفي وابن زيدون الذي قال فيها واصفاً هذه الحالة: وكان يرى الحياة متعلقة بقرعها، وما زاده امتناعها إلا اغتباطاً لها، ولم يكن بيد الأميرة الشاعرة من حيلة فهي كما أسلفنا تخاف وتداري عن كرامتها وأهلها والعرش، فكتبت له مخيرةً بحالها:

تَرْقُبُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي      فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسَّرِّ  
وَيْشِيءُ مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا      وَبِاللَّيْلِ مَا أَدَجَى وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسِرْ<sup>1</sup>

ولا يعني هذا أن المرأة إما جارية مادية أو ابنة الملوك عفيفة، فهناك كثير من الجواري اللاتي أحبن بصدق وعشقن الرجل، والبعض من نساء العرب العامية من الناس كذلك، وقد شغف الرجل الشاعر وغير الشاعر بهن وذكر محاسنهن المادية والمعنوية، تلك العواطف نحو الرجل والرغبة في وصله، فقد صوروها لنا الشعراء في مقطوعات رائعة تتم عن وفاء وصدق صبابة، فالشاعر البسطي في مقطوعته يخبرنا عن محبوبته التي بادلته الحب والهيام، وهي لا تطيق الفراق ولا تصير عن المحجر، فهي لا تنام الليل، وتبكي بحرقة وغزارة العينين إذا ما حل الفراق، وبدت علامات الحزن والذبول على وجهها الجميل، فيقول:

لَمْ أَنْسَى يَوْمَ التَّوَى وَالْبَيْنَ كَلِمَتَهَا      وَقَلْبَهَا مِثْلُ قَلْبِي الْيَوْمَ مُضْطَرِبِ  
وَوَجْهَهَا مِثْلُ وَجْهِي وَاجِمٌ فَرَقَا      مِنْ حَظِّبِ فَرَقْتِنَا غَيْرَانَ مُكْتَسِبِ  
وَدَمْعُهَا مِثْلُ دَمْعِي فَوْقَ وَجْنَتِهَا      كَالغَيْثِ مِنْهُمْ هَامٍ وَمُنْسَكِبِ  
وَقَدْ مَدَدْتُ إِلَيْهَا لِلْوَدَاعِ يَدَا      وَاسْتَقْبَلْتَنِي بِأُخْرَى وَهِيَ تَنْتَجِبِ  
اللَّهُ فِي حِفْظِ حُبِّي لِأَتَضِعُهُ      فَحِفْظُهُ لَيْسَ لِي فِي غَيْرِهِ أَرْبُ<sup>2</sup>

وغيرها من الأشعار الكثيرة التي قيلت في المرأة وما يخصها في جميع مظاهرها، والتي تناولها الشعراء بالتدقيق والتفسير، كما أن مساحة البحث لا تسمح بسرد مثل هذه الأشعار فتناولنا منها على حسب الاستدلال لا الحصر.

**2: صورة الأم في شعر الرجل:** إضافة إلى الأم العربية الحرة فقد ضم المجتمع الأندلسي الكثير من الأمهات المسيحيات واللاتي بقين أكثرهن على دينهن، فلم يغير من طابع سعادة بيوتهن اختلاف العقيدة بين الزوج وزوجته أو الولد وأمه<sup>3</sup>، ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسراً إلى طباع كمن يحبه<sup>4</sup>، وهذه ميزة شعراء الأندلس مع الأم ملكة كانت أم جارية، ومن بعض طبائع العرب كان شرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضي العزيمة، حي الأنف، أبي الخسف<sup>5</sup>، لكن الأمر يختلف مع من والدته التي رنته وأخذته لأفضل المعلمين وتأمل أن يعتلي العرش يوماً، وكانت من أروع الأمهات عائشة بنت عبد الله الأيسر التي حاولت الحفاظ على العرش وفعلت أكثر من قدرتها في تربية ابنها عبد الله الصغير، الذي اجتمعت فيه طراوة العود وقلة الخبرة والتمتع بالملذات مع السريات التي كن أحد الأسباب القوية في تسليم مفاتيح غرناطة، فلم رأت ورأت ابنها الذي كان أمله للملك يبكي قالت:

ابكِ مِثْلَ النِّسَاءِ مَلَكاً مُضَاعاً      لَمْ تَحَافِظِ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَالِ<sup>6</sup>

وكان الكثير من الأبناء من البر والإحسان ما أثلج صدور أمهاتهم، فقد نالت الأم نصيباً وافراً من المديح والثناء، كما أثنى وأبدع ابن عباد على أم مالك حين قال:

سَقَى أَثْلَاثَ الْجَزَعِ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ      عَشَارَ سَحَابٍ مُتْرَعَاتٍ حَوَافِلِ<sup>7</sup>

كما مدح ابن دراج القسطلبي الأم الحرة حواء قائلاً:

هُمُ أَوْرَثُوكَ الْعُلَا وَاسْتَخْلَفُوكَ عَلَيَّ      آيَاتَهَا، وَحَدَا الْأَعْقَابُ وَالْعَقَبُ

1: نساء من الأندلس/أحمد خليل جمعة/منشورات دار اليمامة بيروت/ط1 1421هـ- 2001م/ص437.

2: ينظر: ديوان عبد الكريم القيسي البسطي/ص113.

33: الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده/مصطفى الشكعة/ منشورات دار العلم للملايين 1978م/4ص 80.

44: طوق الحمامة في الألفة والألاف/ ابن حزم الأندلسي/ قدم له وحققه/ فاروق سعد/ منشورات دار مكتبة الحياة/2002-2003م/ص126.

5: المصدر نفسه والصفحة.

6: نساء نت الأندلس/ أحمد خليل جمعة/ اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع/بيروت/ ص 306.

7: ينظر: نفع الطيب/ ج2/ ص84.

أَهْلَلْتُ بِالْحِرَّةِ الْعُلَيَّا إِلَى أَمَلٍ أَمْثَلَةُ كَانَتْ الْأَشْعَارُ تَنْتَجِبُ<sup>1</sup>

وغيرها الكثير من تلك القصائد الشعرية سواءً أكانت من الشاعر نفسه لأمه أو من شاعرٍ لأم تستحق الذكر والوصف والمدح. أما الشعر الآخر الذي ذكر مخصوص للأم فهو المواساة، لأن الأم في جميع الأحوال ملاذاً للرجوع في أوقات الشدة والضيق، ومن هذا المنطلق يتوجه بتلك الأشعار الجميلة مكافأة لها في تبصيرها على ما عانت من سهرٍ ومن حرمان ومشاكل الأب والأسرة، أو مرارة الثكل، فيذكرها بأمهات المسلمين من قبلهم أو ما رواه القرآن مثلاً عن أم موسى العظيمة، التي دفعت بفلذة كبدها إلى النهر، فيبرد فؤادها على فقيدتها في الحرب، وكثيراً ما كانت غزوات المسلمين يموت فيها الأبطال والشباب فتحزن الأم وتلوع عن فقيدتها، يقول ابن زيدون:

أَمَقْتُوْلَةُ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَهَلَا أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي  
أَقْلِي بَكَاءَ لَسْتِ أَوْلَ حِرَّةٍ طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى فَصِّصِ الثُّكُلِ  
وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرْ وَاسْلِي<sup>2</sup>

رثاء الأمهات وندبهن: وللمرأة الأم نصيب في ذكرهن على ألسنة الشعراء في مجال التعزية والبكاء أثناء الموت والفواجع، وصعبٌ عليهم تأبينها في مجال الرثاء والتعزية<sup>3</sup>، وخير قصيدة تجسد الموقف قول ابن زيدون في رثاء أم المعتضد يذكر حسن خلقها وتسامحها مع الناس ومحاولة التوفيق بين الخصوم وغيرها من أعمال البر التي اشتهرت بها، والتي بموتها نكسة عظيمة في ذلك الوقت، يقول:

خَلَائِقُ مُهْمَاةِ الْفُرْنِدِ كَأَنَّهَا خَلَائِقُ رَوْضِ الْحُزْنِ جِيدَ فَأَيْنَعَهَا  
تَنَافَحَهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودِدِ تَخَالُ فَيَبِيْتُ الْمُسْكَ عِنْدَهَا تَصْوَعَا  
وَدَمَتْ مَلْقَى أَنْجُمِ السُّعْدِ بَاقِيَا لِدَيْنٍ وَدُنْيَا، أَنْتِ فَخْرُهُمَا مَعَا<sup>4</sup>

3: صورة الزوجة في الشعر الأندلسي: تعد الزوجة في العصر الأندلسي من أبرز وأهم ما افتخر به الكثير من الشعراء، فقد احتلت مكانة مرموقة في نفسه، تمثلت برابطة متينة سامية بعقد شرعي وألفة بينهما ذات أواصر محكمة، فتغني بها الشعراء وافتخروا بأصالتها وإدارتها للأسرة والبيت الحاكم، هذه الفضائل تدل على الرقي العقلي للمرأة، وقلما نجد مثل هذه الصفات عند غيرها من النساء في الأمم الأخرى، يقوا ابن حمديس:

كَمْ تَكَلَّفَتْ مِنْ كَبِيرَةٍ سَنِ وَتَبَيَّنَتْ مِنْ صَغِيرَةٍ يُثَمِّمُ  
فَأَصَاقَتْ يَدَاكَ مِنْ صَدَقَاتٍ كَانَ يُجِيَا بِهِنَّ مَيْثُ عَدَمِ<sup>5</sup>

ولم يكن الفخر بالنساء الحرائر فحسب بل حتى السريات التي ذكرهن الشاعر في شعره دوراً بارزاً ليس في المتعة فحسب بل التناسل وإنجاب الأولاد الأقوياء أصحاب القوة والجسامة والوسامة، كما انتشرت عندهم عادة تعدد الزوجات والتسري بهن، وتكون الزوجة الأولى هي من تتمتع بلقب السيدة الكبرى، ومن أروع ما قاله المعتمد بن عباد في محظياته عند توديعهن ورجع فقال:

ذَارِي الْغَرَامِ، وَرَامَ أَنْ يَتَكْتَمَا وَأَبَى لِسَانَ دَمُوعِهِ، فَتَكَلَّمَا

وغيرها الكثير من الأشعار التي قيلت في الزوجة سواءً في غرض المدح والفخر أو العتاب والحب أو الرثاء، هذه الزوجات رغم الحب والعيش الرغيد لم يخلو الأمر من الغيرة والوسوسة تجاه أزواجهن، فقد كان للتبارات التي رافقت العصر وما صحبه من جلب القيان وكثرة الجوارح واختلاط الرجال بالنساء دوراً كبيراً في الغيرة والشك وكثرة الفتن التي كانت أحد الأسباب في سقوط الخلافة الإسلامية، وخير مثال على ذلك غيرة اعتماد الرميكية على زوجها المعتمد وطنها به الظنون رغم حبه لها وما قدمه لها من أشياء يعجز عنها الفكر، لكنها المرأة بغيرتها وشكها وأنانيتها في الحب التي تصيبها بالمرض أحياناً، وموقف الزوج منها، يقول في ذلك:

تَظُنُّ بِنَا أُمِّ الرَّبِيعِ سَأْمَةً أَلَا غَفَرَ الرَّحْمَنُ ذُنْبًا تُوَاقِعُهُ  
أَأَهْجُرُ طَبِيًّا فِي فُؤَادِي كِنَاسُهُ وَيَبْدُرُ تَمَامٍ فِي جُفُونِي مَطَالِعُهُ  
وَرَوْضَةً حُسْنٍ أَجْتَنِبُهَا وَبَارِدًا مِنَ الظُّلْمِ لَمْ تَحْظُرْ عَلَيَّ شَرَائِعُهُ  
إِذَا هَجَرْتُ كَفْتُ نَوَالًا تَقْبِضُهُ عَلَى مُعْتَقِيهَا أَوْ عَدَاوًا تُقَارِعُهُ<sup>6</sup>

1: ديوان الأعمى التطيلي/ص18.

2: ديوان ابن زيدون/تح: نديم مرعشلي/ص66.

3: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة/ أبو الحسن علي بن بسام ت 542هـ/تح: إحسان عباس/ 1978م- 1979م/1م/2ق/ص10.

4: ديوان ابن زيدون/تح: نديم مرعشلي/ص134.

5: ديوان ابن حمديس/ ص 480.

6: ينظر: ديوان المعتمد بن عباد/تح: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد/ منشورات المطبعة الأميرية. القاهرة سنة 1951م/ص23.

وكما وصفوا الزوجة بأبدع المقطوعات، فقد رثوها عندما ماتت وحزنوا عليها وآلمهم فراقها الذي أصبح فارغاً من كل شيء، وأبدل الزمان الفرح ترحاً والبشاشة حزناً، وهو في هذا يسأل الدهر الذي جار عليه، وأصابه في أعز وأعلى ما يملك، فهي المؤنس ورفيق الدرب، وخير من يمثل هذا المشهد العظيم الشاعر التطيلي المتوفى (525هـ)، الذي بكأها بدموع حرى مع التجلد والصبر والرجوع للقضاء والقدر يقول:

وَتُبْتُ ذَاكَ السَّوْجَةَ غَيْرَهُ الْبَلَى عَلَى قُرْبِ عَهْدِ بِالطَّلَافَةِ وَالْبَشْرِ  
بَكَيْتُ عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَلَوْ أَبَسْتُ بِكَيْتُ عَلَيْهِ بِالتَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ  
وَمَا فَعَلْتُ تِلْكَ الْمَحَاسِنُ فِي الثَّرَى فَقَدْ سَاءَ ظَنِّي بَيْنَ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي<sup>1</sup>

وغيرها من المطوعات الحزينة التي تناوها الشعراء أنذاك من مختلف الجوانب وأجل التعبيرات التي كادوا أن يتباروا فيها لولا الحزن الصامت الذي خيم على القلوب قبل الوجوه، وفي الصدور قبل السطور، والذي أبكى الحدق قبل الورق.

**4: صورة الأخت والابنة في شعر الرجل:** مثلما نالت الأم والزوجة الحرة أو الجارية والسرية حضاً وافرأ من الشعر، أيضاً لم ينسى الرجل ابنته وأخته التي هي سر سعادته بعد أمه، وقد تحدث الكثير من الشعراء عن الأخت وافتدوا بمن كان قبلهم من الأمم الغابرة، كقصة أخت النبي موسى - عليه السلام - عندما تبعته أثره وكانت السبب بعد توفيق الله في رد قرة عين أمها، وتبقى رابطة الأخوة من أعمق الروابط الإنسانية، ولكن من خلال دراستنا المتواضعة وخاصة في عصر المرابطين الذي كان لازدهار الشعر دوراً بارزاً في هذا النوع من الحب، لم نحصل على شعر للأخت إلا في غرض الرثاء ذلك أن الأخت في أسبانيا انشغلت في الانتقام لأخيها المغدور في تلك الحروب القائمة، مثل صورة أخت عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضي<sup>2</sup>، الذي ندب أخته وحزن عليها حزناً شديداً وقال فيها:

أُبْنْتُ الْهُدَى جَدَدَتِ مَعِيَ عَلَى مَعِي مَضَى الْمُرْتَضَى أَصْلاً وَأَتْبَعْتُهُ فَرَعَا  
جَرَى الْمَوْتُ جَزِي الرِّيحِ فِي مَنَبَيْكُمَا فَأَذْوَاكِ رِيْحًا وَكَسْرَةَ نَبْعَا  
عَلَى نَسْقِي جَاءَ الْمَصَابُ وَإِنَّمَا تَقَدَّمَ وَتَرَا وَأَتْبَعْتُهُ شَفْعَا

**صورة الابنة في شعر الرجل الأندلسي:** لم تقل الابنة أهمية عن الأم والأخت بل كانت لها المكانة المرموقة بين أهل القصر وخاصة الحرة منهن من بنات الجواري، فعلى سبيل المثال في عصر الطوائف والمرابطين ينقل لنا أبو مروان ابن حيان صورة عن الأوضاع التي أثرت على وضع الابنة والقبائل المتحالفة على غزو أسبانيا الذين (هتكوا الأستار، وفتكوا بالأبكار واستحوذ السودان وسُفُال العسكر على النساء فكانت أحببتهم مملوءة منهن)<sup>3</sup>، ومقصد هذا الكلام لم يكن الهتك في القرون التي حكمها العرب كلها، إنما في دخول عصرٍ على عصر أو بعض المواقع التي حدثت فيها مثل هذه الأمور فأصابت الأبنة وأهلها بالحزن والألم، ولنا في المعتمد بن عباد خير مثال على حبه لبناته ودلاله لهن، حيث كن المقربات لقلبه، وكم كان حزنه عميق عندما نفي خارج أسبانيا وهين يتعرضن للذل والهوان بعد زوال الجاه والنعمة، وخاصة يوم العيد عندما رآهن في أطمار بالية بعد أن كن يلبسن الحرير والإستبرق والتيجان والذهب، فراح يناجي نفسه شاكياً لاضطرار بناته للعمل في الغزل لتحصيل قوتهن أو ما يتصدق به أهل الخير على الأميرات المخلوعات، فيقول:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا فَسَاءَكَ الْعَيْدُ فِي أَعْمَاتِ مَأْسُورَا  
تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَانِعَةً يَغْرُلْنَ لِلنَّاسِ لَا يَمْلِكَنَّ قَطْمِيرَا  
بَرَزْنَ نَحْوَكِ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتِ مَكَاسِيرَا<sup>4</sup>

ومن كثرة حب الوالد لابنته أن كان يتدخل في أمور زواجها لا تعصباً وإنما لتأمين مستقبلها مع رجل تتوافر فيه مواصفات الرجولة والدين، يقول الحكيم أبي الفضل بن شرف:

بِكُرِّ بَخَلْتُ عَلَى الْأَمَامِ بُوْجْهَهَا وَمَنْعْتُهَا مَنْ لَيْسَ مِنْ أَرْوَاجِهَا  
وَصَرَفْتُهَا مَحْجُوبَةً بِصَوَائِهَا مِثْلَ السَّلْوَكِ تُصَانُ فِي أَدْرَاجِهَا<sup>5</sup>

كما كان من حق الابنة أن ترفض من تشاء وتختار من تشاء إذا اكتملت فيه المواصفات السابقة، فلا يوجد تحديد للابنة أو إلزامها بالموافقة عن رجل لا تريده وخاصة إذا كان شيخاً كبيراً، ولو اكتملت فيه المواصفات المطلوبة يقول في ذلك ابن حمديس:

1 : ديوان الأعمى التطيلي/ص70.  
2 : عبد الرحمن المرتضي: هو أخ هشام بن محمد الناصري الذي بويع بخلافة قرطبة سنة420هـ . ينظر : جمهرة أنساب العرب/أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي ت 456هـ /نح: عبد السلام محمد هارون/ دار المعارف. مصر1962م/ص101.  
3 : البيان المعرب/ج1/ص132\*133/تح: ج.س.كولان وليفي بروسفال/ دار الثقافة. بيروت لبنان.  
4 : نفع الطيب/ج6/ص6.  
5 : ينظر : فلاند العقيان في محاسن الأعيان/ الفتح بن خاقان/منشورات مطبعة التقدم العلمية. مصر/1964م/298.

قَدَحَ الْمَشِيْبُ بِمَفْرَقِيهِ زَنَادَا  
لَا يَسْتَطِيعُ لِنَارِهِ إِحْمَادَا  
أَكْثَرَتْ مِنْ ذِكْرِ الْفَتَاةِ وَقَلَّمَا  
تُعْطَى لِذِي الذِّكْرِ قِيَادَا<sup>1</sup>

كما ذكروا المهور وخاصة للابنة الحرة، وكتبوا الأشعار في الحفيد شبهه بالأُم وغيرها من الاهتمامات الرائعة في صلة الأرحام بالابنة وأولادها وزجها، والعلاقة الأسرية المبنية بتعاليم الدين السمح.

5: صورة الحبيبة: وهي من أروع ما قيل في الغزل الأندلسي سواءً أكانت حبيبة بالمشاعر والأحاسيس أو كانت اسم امرأة يتخيل وجودها ضمن مقاييس الشعر وأصوله، ولعل خير من مثل القسم الأول وهو وجود الحبيبة والتغزل بها ابن زيدون<sup>2</sup>، وقصته مع ولادة بنت الخليفة المستكفي الأمير الجميلة الساحرة ومجالس السهر والسمر لا تحفى على أهل الأدب، فكثرت شعره فيها ومن بعض مقطعات له يقول في جمالها الذي جمع بين عذوبة الحديث وأناقة المظهر إلى جانب جمال الخلق، يقول:

لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخُلُقٌ مُحَسِّنٌ  
وَوَظْفٌ كَعُزْفِ الطَّيْبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ  
يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثِ تَلَدُّهُ  
كَمَثَلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقْبِ الْهَجْرِ  
ويقول شاكياً منها:

أَتَلَفْتَنِي كَلَفًا أَبْلَيْتَنِي أَسْفَاً  
فَطَعْتَنِي شَعْفًا أَوْرَثْتَنِي عَلَاً  
وَاللَّهِ لَا عَلَقْتَ نَفْسِي بِغَيْرِكُمْ  
وَلَا أَتَحَدَّثُ سِوَاكُمْ مِنْكُمْ بَدَلَاً  
ومتديلاً:

يَا نَارِحاً وَصَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ  
آنَسْتِكَ ذُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ مَوْلَاهُ  
ومتوسلاً:

صَلِّبْنِي بِعَفَى الْوَصْلِ حَتَّى تَبِينِي  
وَمُعَاتِيًّا:  
حَقِيقَةَ حَالِي ثُمَّ مَا شِئْتَ فَاصْنَعِي

أَيُوحِشُنِي الرِّمَانُ وَأَنْتَ أَنْسِي  
وَأُغْرِسُ فِي مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِي  
ونادماً:

وَمَا رَدَى عَلَيَا الْوَأَشِينُ إِلَّا  
رَضِيَتْ بِحُورِ مَالِكِي رَضِيَتْ  
ومُسْتَوِيًّا:

هَذِي الْحَقِيقَةُ لَا قَوْلِي مُخَادَعَةٌ  
لَوْ كَانَ قَوْلُكَ مُتًّا. مَا كَانَ رَدِّي لَأَ<sup>3</sup>

وغيرها الكثير في مختلف أغراض الشعر لها، أما ما يخص البعض الآخر من الشعراء الذين ذكروا المرأة وتحدثوا عنها فالمساحة لا تحمل ذكر أشعارهم ولا الحديث عنهم، اكتفينا بالإشارة فقط لابن اللبانة وابن عبد ربه، وعبد الجليل بن وهبون وغيرهم الكثير ممن ذكروا المرأة بأوصافها المادية الحسية والقليل منهم من تحدث عن العذرية، ومهما يكن من أمر فهذا الشعر وغيره أظهر وبين وأوضح لنا البيئة الأندلسية وحياتة الناس آنذاك وأساليب الحياة وغطها، سواءً بالغزل أو غيره من الفنون.

المبحث الثاني: الجوّاري في شعر الرجل: الجوّاري والإماء ينقسمن قسمين: جوّاري الخدمة وجوّاري اللذة، فجوّاري الخدمة يقمن بخدمة السادة وجلب المتعة إلى نفوسهم بمختلف الوسائل من أمراء وملوك ووجهاء وأصحاب نفوذ وغيرها، فيتعلمن الشعر والموسيقى والغناء والرقص وغيرها من حركات وكيد النساء، أما جوّاري اللذة فكانت مشاغلهن تختص ب جلب المتعة والسرور إلى نفوس أسيادهن أيضاً، فيبحثن عن حب السيّد ورضاه وتقديم كل وسيلة في إمكانها تجلب بهجة له، والشواهد من هذا النوع كثيرة لمن اطلع على شعر الرجال بالمرأة يجده خالي من الحياء ويميل إلى الخيال وتأنق في صياغته، والخروج عن تقاليد الشعر الشرقي التي تتسم بالرصانة في أغلبه مع وجود الخلاعة في القليل منه، لذلك نجدهم في مجالسهم الليلة ودور الغناء يصفون الراقصة وهي تنثني كعود البان والساقية بعطرها الأخذ للروح، فلا يتحرج الشاعر من وصفهن في أجمل الحلي عندهن فذكروا لون شعورهن وشفافة ملابسهن ، ووجهها

<sup>1</sup> : ديوان ابن حمديس / 143-144.

<sup>2</sup> : ابن زيدون: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، وبنو مخزوم بطن من بطون قریش. ولد عام 394هـ\* 1003 من بالرصافة من ضواحي قرطبة، ينظر: ديوان ابن زيدون/ تج: كرم البستاني دار صادر بيروت 1964/ ص 9-15.

<sup>3</sup> : الأبيات السابقة لابن زيدون من ديوانه قافية الرءاء ص 115 ، وباقى الصفحات في نفس الديوان. 104

وعيناها ومحاسن جسدها وبياض بشرتها الذي لم يكن في المشرق العربي، فقد كان المنظر مثل الخيال أو الحلم بالنسبة لهم، كما أن المرأة لم تقصّر في الملاحظة والدلال عليهم، وهذا ما جسده ابن حمديس لإحدى المغنيات الفاتنات وهي تغني وتتمايل بكل أوصاف الجمال وعدوبة الصوت. يقول:

وَرَأَيْتُهَا بِالسَّحْرِ فِي حَرِّ كَأَنَّهَا      تُقِيمُ وَزْنَ الْغِنَاءِ عَلَى حَدِّ  
وَتَحْسِبُهَا عَمَّا تُشِيرُ بِأُمَّلٍ      إِلَى مَا يَلَاقِي كُلَّ عَضْوٍ مِنَ الْوُجُدِ  
بِنَا لَا يَمَّا مَا تَشْتَكِي مِنَ جَوَى الْهَوَى      وَأَذْمَعِ أَشْوَاقٍ مَحْدَدَةً الْخَدِّ<sup>1</sup>

وسنبداً بذكر كل نوع مع شاهد من الشعر لكل صورة من صور الجوّاري.

**1: الراقصة:** يعد الرقص في أسبانيا في عهد المسلمين وخاصةً في عصر ملوك الطوائف ما تميزت به تلك الفنون من إبداع، وقد شاركت الجوّاري الراقصات في الاحتفالات العامة وكثرت الرقصات المتدرجات على هذا الفن، وقد تميزت بجمال الطبع وحسن الصنعة والحدافة باللعب بالسيوف<sup>2</sup>، ولبس الملابس الطويلة ذات الطيات الكثير لتساعدن عند الدوران في إبراز تلك الألوان واستخدام الرائحة الذكية التي تفوح عند حركتهن، والإشارة مناطق من أجسادهن عندما تغني المغنية كالإشارة بالأنامل إلى العين عند ذكر الدموع أو إلى القلب عند ذكر اللوعة وغيرها، وقد برعن في مختلف أنواع الرقص سواءً بموسيقى هادئة عند مجالس الشراب أو صاخبة في الاحتفالات العامة، وذلك كن وقوا ابن حمديس:

وَرَأَيْتُهَا بِالسَّحْرِ فِي حَرَكَاتِهَا      تُقِيمُ بِهِ وَزْنَ الْغِنَاءِ عَلَى حَدِّ  
مُعَمَّةً أَلْفَاظُهَا بِتَرْنَمٍ      كَسَا مَعْبَرًا مِنْ عَزَّةٍ ذَلَّةَ الْعَبْدِ  
وَتَحْسِبُهَا عَمَّا تُشِيرُ بِأُمَّلٍ      إِلَى مَا يَلَاقِي كُلَّ عَضْوٍ مِنَ الْوُجُدِ<sup>3</sup>

والراقصة في كل العصور الأندلسية واكبت تطور الحضارة وتماشت مع رغبات الملوك والحاشية، حيث اشتملت تلك المجالس على مدح الشعراء ووصفهم القصور والحدائق والتغزل بجمالهن، التي كانت بدورها محاولة بكل ما تملك كسب ود المكان وأهله وجني المال قدر ما تستطيع من خلال ملابسها ودلالها وعطرها ونظرة عينها، والعين تنوب عن الرسل<sup>4</sup> والهدوء ورشاقة القد وغيرها من متطلبات التلون والتبختر، يقول ابن حمديس في ذلك:

وَمَنْ رَاقِصَاتٍ سَاحِبَاتٍ دُبُوحًا      شَوَادٍ بِمِسْكِ فِي الْعَبِيرِ تَنْصَحُ  
كَمَا جَرَزَتْ أَذْيَالَهَا فِي هَدْيِهَا      حَمَائِمٍ أَيْكٍ أَوْ طَوَاوِيسُ تَبْدَحُ<sup>5</sup>

**2: الساقية:** كانت مجالس الأُنس والطرب وأصحاب المتعة من الوجهاء والوزراء وبعض أبناء الملوك وغيرهم ممن يمتلكون السلطة والمال تعج قصورهم بالفتيات الجميلات اللاتي تربين على خدمة أسيادهنّ وتقديم الشراب لحظة الرغبة والتمتع به، وتعد الساقية أكثر الجوّاري سهراً على راحة الندماء وترى منذ صغرها على هذه الوظيفة، فتألف السهر إلى ساعة متأخرة، كالساقية أسيماء الطفلة الصغيرة العجيبة الخلق قامت طوال الليل تسقي الندماء دون ملل أو نعاس وهي في أبهى صورتها ولطفها بالجلساء، فقال فيها ابن شهيد الأندلسي مرتجلاً:

أَفْدِي أَسْمَاءَ مِنْ نَدِيمٍ      مُلَازِمُ الْكُؤُوسِ رَاتِبٍ  
قَدْ عَجَبُوا فِي السُّهَادِ مِنْهَا      وَهِيَ لَعْمَرِي مِنَ الْعَجَائِبِ  
قَالُوا تَجَافَى الرُّقَادُ عَنْهَا      فَقُلْتُ: لَا تَرْفُدُ الْكَوَاكِبِ<sup>6</sup>

وقد وصفوا طريقة صبيها للكأس بيدٍ حنيةٍ ووجهٍ مضيءٍ في ليله كالنجم، فكانت طريقة تقديم الكأس بتلك اليد أشبه بالدواء للعليل، وكان تلك اليد فمّ يتكلم، يقول في ذلك ابن حمديس:

يَا حُسْنُ سَاقِيَةٍ تَمُدُّ أُنَامِلًا      بَعْرُوسُ رَاحٍ فِي عَقْدِ حَبَابِ  
تُسْقِيكَ شَمْسَ سَلَافَةَ عَنِيَّةٍ      طَلَعَتْ عَلَى فُلْكِ مِنَ الْعَنَابِ  
وَكَأَنَّ يَدَهَا فَمٌّ مُتَكَلِّمٌ      بِالسَّحْرِ فِيهِ مَقُولُ الْمُضْطَرَابِ<sup>7</sup>

<sup>1</sup> : ديوان ابن حمديس/ قصيدة رقم 84

<sup>2</sup> : فضائل الأندلس وأهلها/ لابن حزم وابن سعيد/ دار الكتاب الجديد 1968/ ص53.

<sup>3</sup> : ديوان ابن حمديس/ ص24.

<sup>4</sup> : طوق الحمامة في الألفه والألاف/ لابن حزم الأندلسي/تح: فاروق سعد/دار مكتبة الحياة القاهرة/ 2002-2003م/ ص106

<sup>5</sup> : ديوان ابن حمديس/ ص13.

<sup>6</sup> : ديوان ابن شهيد الأندلسي/تح: شارل بلا/ منشورات دار المكشوف. لبنان/ 1963م/ ص39.

<sup>7</sup> : ديوان ابن حمديس/ ص24.

ولم يقتصر السقي للخمرة وما شابهها من سكر، إنما كانت الساقية للماء والقهوة أيضاً في مجالس أنسهم ولهوهم، وندامتها لهم حتى في أيام البرد والصقيع، فهذه الساقية أرعبتها الصواعق والبرق الذي يشبه جمالها ولمعناها، فيصفها المعتمد بن عباد:

رَبِعْتُ مِنَ الْبَرْقِ وَفِي كُلِّهَا      بَرْقٌ مِنَ الْقَهْوَةِ لَمَاعٌ  
يَالَيْتَ شِعْرِي وَهِيَ شَمْسُ الصُّحَى      كَيْفَ مِنَ الْأَنْوَارِ تَرْتَاعُ<sup>1</sup>

والحديث يطول عن الساقية وملازمتها لما ذكرناه وكثرت وتدللت واسترقت الأخبار ومنهن من ذاعت الأسرار، ومنهن من كانت البلسم والدواء وغيرها الكثير الكثير من الروايات التي تداولت أخبارها، ومهما يكن من أمرها فقد تعايش وعاشت وربما كابدت لأجل لقمة عيشها والهروب من الفقر، فصبرت على السهر في أمكنة تحويها وتؤمن حياتها.

**3: المغنية:** بما أن طبيعة البلاد جميلة، وحياء أهلها مليئة بالترف فتنطوّر فن الغناء فوضعوا له نوعاً جديداً يسمى بالموشحات، وقد كثرت الفتيات الجميلات ذات الصوت الحسن اللاتي ملأن القصور ودور الغناء بحسن العذب، ونحس فن الغناء وخاصة بعد ظهور المعني زرياب الذي ضبط قوانينه ووضع له شروط، فأقبلت كثير من النساء ومنهن ابنتيه حمدونة وعلية، كما اشتهرت المغنية قلم جارية المير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة، والجارية فضل والجارية علم، كذلك جارية العجفاء وغيرهن الكثير اللاتي يحفظن الشعر العربي وأكثرهن روميات أو يونانيات، ومن روائع الغناء أن الجارية العجفاء تناولت عوداً فحسنته، ثم ضربت عليه، وانبعثت تغني بأبيات ميمية لأبي صخر المهدي فتقول:

يَبْدِ الَّذِي شَغَفَ الْفُؤَادَ بِكُمْ      فَرِحَ الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْهَمِّ  
هَمٌّ مِنْ أَجْلِكَ لَيْسَ يَكْشِفُهُ      مَلَيْكَ جَائِرُ الْحُكْمِ  
فَاسْتَيْقَيْتِي أَنْ قَدْ كَلِفْتُ بِكُمْ      ثُمَّ أَفْ لِي مَا شِئْتِ عَنْ عِلْمِ  
قَدْ كَانَ صَرْمٌ فِي الْمَمَاتِ لَنَا      فَعَجَلْتِ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصَّرْمِ<sup>2</sup>

أو فارسيات صاحبات الجمال والحسن والصوت والدلال الذي لم يعهده العرب، فأصبحت المغنيات يأخذن مكانة كبيرة في المجتمع الأندلسي<sup>3</sup> المبحث الثالث: المرأة والطبيعة في شعر الرجل: اعتاد معظم الشعراء تشبيه المرأة بمفاتيح الطبيعة، كأن جعلوا قدها جميلاً مياساً كالغصن الرطيب، وشعرها الفاحم كالليل الطويل، ووجهها كالقمر وزندها كالجدول في نعومته وانسيابه، وأكثر ما تتجلى مفاتيح الطبيعة معانقة لمحاسن المرأة غي غزل ابن زيدون، حتى يستصعب عن القارئ المبتدئ أن يميز بين ما هو غزل في المرأة أو هو غزل للطبيعة، ومنه قوله:

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزُّهْرَاءِ مُشْتَاقًا      وَالْأَفُقُ طَلَّقَ وَوَجْهُ الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا

**1:** القمر اتصل الغزل بالطبيعة عند كثير من شعراء الأندلس وربطوه بالمرأة وكأنها جزء منها، وقد أبدعوا في ذلك بكل ما يقتضيه هذا الربط من لهو وطرب، فكانت الحبيبة روضاً وجنة وشمساً، وكما قال عنهم المقرئ في كتابه نفع الطيب: "إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورود خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصدغاً، ومن السفرجل نخوداً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وشر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً"<sup>4</sup>، فربطوا المرأة بالقمر كقول ابن خاتمة في وصف حبيبته التي فاق جمالهن القمر أو باتت شقيقته، وهو يستنير من سناها في الليالي:

يَا قَمَرًا مَغْرِبُهُ مُهْجَتِي      وَافْقُهُ حَضِي إِذَا يَنْجَلِي  
قُلْ لِي بِحَقِّ الْوَدِّ يَا بُغَيْتِي      مَنْ دَلَّ عَيْنِكَ عَلَيَّ مَقْتَلِي<sup>5</sup>

**2: المياه:** كانت لمساقط المياه من شلالات وعيون وأحار عذبة أثر كبير في نفوس العرب الذين كانوا يرتحلون من مكان لآخر بحثاً عن بقايا المياه القليلة وأماكن الكلاء، للتوقف القليل من صفحات الزمن ثم العودة مجدداً للبحث عن مثل هذه الأماكن، وكانوا خلال ترحالهم وضعنهم يذكرون المرأة سلوة أوقاتهم المملة ومهجة قلوبهم المنعلة، فربطوا أشعارهم بما وولعوا لأجلها، ويعد ربط المرأة بشعر الماء الذي كان من النادر عند الشعراء الجاهليين؛ لكنهم في أسبانيا كان الأمر مختلفاً؛ لأن كل ما رأوه من جنة لا تكاد تصدقها أعينهم فقلب تفكيرهم ما انعكس على شعرهم ونتاجهم الأدبي وزيادة وفرته وتنوعه، وخير من يمثل هذا ابن خاتمة الأنصاري يقول:

مَهَاةَ جَزَى مَاءِ الْحَيَاةِ بِغَرْهَا      رُضَابًا أَعَادَتْهُ الْمُنُونُ بِعَقْرِب<sup>6</sup>

1: ديوان اتلمعتمد بن عباد/ ص21.

2: نساء من الأندلس/ 329،

3: نساء من الأندلس/ يتصرف كبير/ ص34-37.

4: نفع الطيب/ ج1/ ص323.

5: ديوان ابن خاتمة الأنصاري/ تح: د. محمد رضوان الداوية/ مطبعة محمد هاني الكتيبي/ 1972م/ القصيدة (9) البيت7.

6: المصدر نفسه/ القصيدة3/ البيت16.

وفي هذا الصدد يقول ابن خفاجة بعد أن اشتعل الحب في قلبه وفعل السكر فعلة في عقله:

فَكَادَ يَشْرَبُ نَفْسِي وَكَدَّتْ أَشْرَبُ خَدَّهُ<sup>1</sup>

فالشرب هنا كناية عن امتلاك الغاية التي هي الماء وهو الغاية ومن اللذة، وهو ماء ثغرها والتمتع بالحب، فالماء هنا يطفى النار المتأججة في القلوب لتصبح هي ماء الحياة وهو أكثر من الماء.

**3: الليل والصبح:** كان الليل في الأندلس من أجل الأوقات عندهم، فهو وقت السمر والسهر وإزاحة هموم وثقل أعباء النهار، فيذهبون للحنانات ومجالس الشرب والترويح عن النفس، وهناك يجدون ضالتهم من مغنية وراقصة وساقية ومستمعة، وكل امرأة منهن ذات جمال يبهز النفس ويطيّر القلب، ويظل الرجل منهم يستمتع بوقته حتى طلع الصبح أحياناً، وقد قالوا في ذلك الشعر الوفير الذي تقطط منه قول ابن خفاجة الذي مثلته: الطبيعة، الخمرة، المرأة:

نَادَمْتُهَا لَيْلًا وَقَدْ طَلَعَتْ بِهِ شَمْسًا وَقَدْ رَقَّ الشَّرَابُ سَرَابًا  
وَتَرَمَّتْ حَتَّى سَمِعَتْ حَمَامَةً حَتَّى إِذَا حَسَرَتْ جَزْرَتْ غُرَابًا<sup>2</sup>

وغيرها الكثير من الأوصاف التي ربطوا الليل بالمرأة والصبح والنسيم والمطر، فجادوا وأبدعوا وغيّروا وتركوا ما نحن فيه"

**4: الريح:** لم يترك شعراء الأندلس مظهر من مظاهر الطبيعة إلا وذكره وجادوا فيه، وربطوه بالمرأة التي شغلت تفكيرهم، فوصفوا المرأة وشبهوها بالريح الطيبة التي تأتي بعد حرة الصيف أو كريح الفجر ممزوج ببرودة وانتعاش ووقته القصير، فهو كحبيبته التي تزوره خلصة ووقتها مثله ينفذ بسرعة لأنه طيب، يقول في وصف ذلك ابن خفاجة:

زَارَ وَرَيْحَ الْفَجْرِ قَدْ قَلَصَتْ ذَيْلَ غَمَامٍ بَاتَ مَجْرورًا  
وَقَلَّدَتْ أَجْيَادَ تِلْكَ الرُّبَى دُرًّا مِنَ النُّورِ مَنُثُورًا

كما كانت هذه الرياح ممزوجة أحياناً بالدموع على فراق الأحبة لبعده المسافات، لكن الريح تأتي بطيب أنفاسها؛ لأن الهواء عندهم لديه قدرة ينفرد بها في جمع شمل شذى أنفاس الأحبة، فلم تعد البحور عائقاً ولا الجبال سداً ولا اليابسة حاجزاً على النسيم العشقي الذي يصل من حيث لا ندرى محملاً رائحة الحبيب، يدخل خلصة ليعبق في أنفاس تنتظر وترقب<sup>3</sup>، وهذا ما يجسده ابن خفاجة في قوله:

سَلَامٌ عَلَى عَهْدِ الْوَفَاءِ مُودِعًا سَلَامٌ فِرَاقٍ مَا أَقَامَ عَسِيبٌ  
وَقَدْ كَانَ يَسْرِي وَالتَّنَائُفُ بَيْنَنَا فَتَنَدَ بِهِ رِيحٌ وَيَنْفُخُ طَيْبٌ

كما ربطوا الريح بالبرق ووميضه اللامع الذي يشبه الحبيبة في جمالها وسرعة حضورها واختفائها، يقول ابن خاتمة الأنصاري:

وَهَلْ مَا سَرَتْ مِنْ نَسْمَةٍ رِيحٌ أَرْضَهَا وَإِلَّا فَهَذَا الْجَمُّ تَعْبَقُ رَبَّاهُ  
أَحْبُّ وَمِيضَ الْبَرْقِ قَصْدَ جَهَاتِهِ وَأَهْوَى نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْ أَجْلِ مَسْرَاهُ  
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَهْنٌ يُجَلْنَ فِي مَعَاهِدِنَا بَيْنَ الْأَثِيَالِ وَالرُّنْدِ<sup>4</sup>

ولم تكن الأوصاف حكراً للريح الطيبة الهادئة فقط، فأحياناً تحدث القطيعة وتتجافى القلوب، فيكون الوصف للمرأة مثل الرياح العاتية أثناء هبوب العواصف، وترك آثار التدمير والخراب في النفوس قبل البيوت، وخير من مثل هذا ابن زيدون وابن خفاجة وابن عبد ربه وابن هاني وغيرهم، وذلك لما رأوه من جمال الطبيعة وجمال النساء حين يعطين الحب بلا مقابل، ومثل العواصف عند غضبهن وغيرتهن وشعورهن بالإهانة والظلم في أي أمر يحدث بين العشيقين، وغيرها من مظاهر الطبيعة كوصف المرأة بالخمير، مثل قول الشاعر:

حَيَّا الرِّبْعُ بِنَرْجِسٍ وَبِحَارِ فَارْدُذُ تَحَيَّتَهُ بِكَاسِ عُقَارِ

والاشتياق والدموع، والطير وذكر الجنة والنار عند الفراق، والحياة والجنة ورد الأرواح عند اللقاء وغيرها الكثير مما لم نعهده عند عرب المشاركة، يقول ابن خاتمة:

فِي رَاخَتَيْكَ حَيَاةُ الرُّوحِ وَالْبَسَدِ وَفِي رِضَاكِ مَجَالُ السِّرِّ الْغُصُونِ<sup>5</sup>

<sup>1</sup> : ديوان ابنت خفاجة/ تح: يوسف فرحات/ 348.

<sup>2</sup> : ديوان ابن خفاجة الأندلسي ( أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله) / تح: يوسف شكري فرحات/ دار الجبل بيروت/ص 341.

<sup>3</sup> : ينظر: التوشيح في الموشحات الأندلسية/ يوسف عيد/ منشورات دار الفكر اللبناني/ 1993م/ص 169.

<sup>4</sup> : ينظر: الديوان / لابن خاتمة ص 33.

<sup>5</sup> : ديوان ابن خاتمة الأنصار/ص 56.

وماذا بعد هذا الوصف؟! ... هي الروح ولا شيء بعد الروح إنها الحياة، ومن دونها جوفاء، كالغصن يحمل أوراقه ووردوه بكل حب وود، دون ممل أو كليل ولو انثنى أو انكسر، فيدين تلك المرأة حياته وأنسه وأمانه على الرغم من كونه الرجل، فهنا كناية عن أعمق وأصدق وأقوى مشاعر الوصف والحب لها سواء أكانت الأوصاف مرتبطة بالطبيعة أو مرتبطة بمظاهر أخرى غيرها فقد أبدعوا وأحسنوا، والمساحة ضيقة لا تتسع حتى أن نذكر بيت لكل فقرة، -لو أراد الله في العمر بقيّة- سنواصل بقية البحوث على هذا المنوال في معرفة الكثير عن العرب في أسبانيا وحضارتهم العظيمة هناك.

**5: ما قيل في المرأة:** واجتمعت فيه مظاهر الطبيعة والروح والوجدان وحديث النفس وأضغاثها وتعلقهم بهم معدوم، وذلك كما حكى ابن حزم أنق قال: دخلت يوماً على أبي السري عمار بن زياد فوجدته مهموماً مفكراً، فسألته عمّا به، فتمنّع ساعة ثم قال لي: رأيت في نومي الليلة جارية وقد ذهب قلبي فيها وهنّث بما وبني لفي أصعب حالٍ من حبها، فسأله هل تعلم من هي أو رأيتها في مكانٍ ما؟ قال: لا ...، قال ومازلتُ به حتى سلا وما كاد، وفي ذلك يقول:

يَالَيْتَ شِعْرِي مِنْ كَانَتْ وَكَيْفَ سَرَتْ      أَطْلَعَةُ الشَّمْسِ كَانَتْ أَمْ هِيَ الْقَمَرُ  
أَطْنَهُ الْعَقْلُ أَبْدَاهُ تَدْبُورُهُ      أَوْ صُورَةُ الرُّوحِ أَبْدَتْهَا لِي الْفِكْرُ  
أَوْ صُورَةٌ مَثَلَتْ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمَلِي      فَقَدْ تَحَيَّلَ فِي إِذْرَاكِهَا الْبَصَرُ  
أَوْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا فَهِيَ خَادِثَةٌ      أَتَى بِهَا سَبَبًا فِي حَنْفِي الْقَدَرِ<sup>1</sup>

**6: اهتمام العرب بالمرأة جسداً وروحاً:** نظرة فلسفية محاربة للمرأة عند بعض شعراء الأندلس: كما أن المرأة مخلوق جميل هادئ رقيق حنون أيضاً وصفها البعض من الشعراء بأنها مخلوق كاذب، هدفها إغواء الرجل من أجل مصلحة خاصة مادية كانت أم معنوية، وتحاول بشق الطرق الحصول على مبتغاها، لكن شاعرنا فطنٌ لذلك لا تحزّه حركات وسكنات وألا عيب هذه المرأة وغيرها؛ لأنه لا يمكن للضد أن يعكس ضده، فلا يمكن أن تكون النار باردة ولا الماء يتقد ولا الريح تتعقد فهذه أمور مستحيلة يقول ابن حديس:

قالت: أجبك، فُلْتُ كَاذِبَةٌ      غُرِّي بَدَا مِنْ لَيْسَ يُنْتَقَدُ  
هَذَا كَلَامٌ لَسْتُ أَقْبَلُهُ      الشَّيْخُ لَيْسَ يُجْبُهُ أَحَدُ  
سَيِّانٌ قَوْلِكَ ذَا وَقَو      لِكَ إِنَّ الرِّيحَ نَعْقِدُهَا فَتَنْقَدُ  
أَوْ أَنْ تَقُولِي: النَّارُ بَارِدَةٌ      أَوْ تَقُولِي: الْمَاءُ يَتَّقَدُ

ولكثرة وجود الغدر في المحبوب وخاصة السريات اللاتي قتل العرب المسلمين أهلهم واستولوا على عروشهم، فأوغرن الحقد والثأر لهم، أهلهم واستولوا على عروشهم، فأوغرن الحقد والثأر لهم، واستغرب الوفاء منهم، فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود في سواهم، يقول ابن حزم:

قَلِيلٌ وَفَاءٌ مَنْ يَهْوَى يَجِلُّ      وَعَظْمٌ وَفَاءٌ مَنْ يَهْوَى يَقِلُّ  
فَنَادِرَةُ الْجَبَانِ أَجَلٌ مِمَّا      يَجِيءُ بِهِ الشَّجَاعُ الْمُسْتَقِيلُ<sup>3</sup>

وهكذا هي المرأة في شعر الرجل بلحوا ولطافتها مرة وغضبها ومرارة هجرها أخرى، ووفية حانية على الرجل تارة وغادرة خائنة للعيش والملح تارة أخرى، تلونت في شعره وذابت موافقها على لسانه، تجرّج منها الويلات وذاق منها أعذب اللحظات، هي المرأة في كل زمان ومكان وعصر ودهر، وشعره ييوج بكل أسرارها، فقد ملأت دنيا الشعراء بالإلهام، وامتزجت كلماتهم الساحرة بسحرها، فنظموها شعراً ييوج بنبضات قلوبهم ولوعات أكبادهم، وهو شعراً كثير ومتنوع، ولكن مساحة البحث ووريقاته لا تفسح الفرصة للتفصيل والتدقيق، والحديث عنها لا يُمل، ولا أزعم أنني أتيت بالجديد؛ لأن ما كُتِبَ عنها وما شُرح كان مستفاض في حقها، ولكن حي وشغفي للمرأة في البيئة الأندلسية عربية كانت أم غير عربية أثارت فضولي في البحث والكتابة، وكل كاتب وناقد وشارح ومحلل له طريقته في التعبير واستخراج الجيد والإمامه بمن سبقه، وقد حاولت جاهدة من خلال المصادر التي استطعت الحصول عليها أن أكون ولو فكرة صغيرة مبسطة عن هذه المرأة العظيمة التي يجبها فكري قبل قلبي، وأرجو أن أكون قد وفقت، وما التوفيق إلا من الله عز وجل.

نتائج البحث: من خلال مشوارنا القصير في هذه الرحلة الممتعة توصلت لبعض النتائج وهي:

- 1: كانت المرأة محوراً لحديث الرجل الذي صور ذاتها بكل ما تحمله الكلمة من حب وود واحترام صاغه في كلمات تتحدث عنها فرحاً أو حزناً.
- 2: ظهرت الأم والزوجة والابنة والأخت والحبيبة بصورة رائعة، جسدت معنى العواطف الإنسانية الكامنة عند الرجل.
- 3: حصلت الجارية أيضاً على مكانة سامية في قلب الرجل قبل أن تكون في القصر أو البيت.

<sup>1</sup> طوق الحمامة/ لابن حزم/ ص84. بتصرف يسير.

<sup>2</sup> طوق الحمامة/203. (باب الغدر).

<sup>33</sup> طوق الحمامة/ لابن حزن/ ص203.

4: بدت المرأة في عين الرجل وخاصةً الحبية هي المهجة والروح فشبها بالجنة والروضة المعطاء والقمر والشمس وغيرها، ولو طال وصفاً آخر أجمل لكنت لتلك المرأة التي هي بصره وسمعه.  
5: مثلت المرأة البيئة الأندلسية وكشفت لنا عن الحضرة والنبات والأثمار التي لم نراها في مشرقنا العربي، فسرحنا بخيالنا مع الشعراء في هذه الأوصاف وكأننا نرى تلك الجنة ونسامر ونعيش اللحظات الغير مرئية.  
وهكذا عشنا رحلة قصيرة جميلة مصورة في الخيال مكتوبة في الحدق محفوظة في الصدور، وكمن تمنى القلب وحزن الفكر على ضياع مثل هذه الجنة التي كانت وأصبحت مثل الحلم الحزين، ومهما يكن من أمر فقد خاض العرب مغامرة وظلت وستظل عبر الزمن مشوار كفاح صنعه الآباء وهدمه الأبناء.  
توصيات البحث:

- 1: يوصي البحث بضرورة تكثيف البحث والتنقيب في عالم المرأة الأندلسية وما قيل فيها وما أنتجته من أدب يجتار له الفكر.
  - 2: لا بد من التوضيح والتدقيق والتفريق بين المرأة العربية الحرة التي عاشت في أسبانيا ونقلت العادات والتقاليد وبين الجوارى والسرايا الأجنبية.
  - 3: ضرورة إجراء مقارنة أدبية بين المرأة في المغرب والمشرق من جميع نواحي حياتها وأثرها وتأثير في الرجل بخاصة والأدب بعامة.
- المصادر والمراجع:

- 1: الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده/ مصطفى الشكعة/ منشورات دار العلم للملايين/ ط4/ 1978م
- 2: البيان المعرب/ ج1/ تح: ج.س. كولان وليفي بروسفال/ دار الثقافة/ بيروت لبنان.
- 3: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/ د. مريم قاسم الطويل/ منشورات دار الكتب العلمية. بيروت/ ط5/ 1999م.
- 4: التوشيح في الموشحات الأندلسية/ يوسف عيد/ منشورات دار الفكر اللبناني/ 1993م.
- 5: جمهرة أنساب العرب/ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي ت 456هـ/ تح: عبد السلام محمد هارون/ دار المعارف. مصر/ 1962م.
- 6: ديدوان الأعمى التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله ت 525ع/ تح: د. إحسان عباس/ دار الثقافة بيروت/ 1963.
- 7: ديوان ابن حمديس/ دار صادر بيروت/ 1960.
- 8: ديوان ابن خاتمة الأنصاري/ تح: د. محمد رضوان الداية/ مطبعة محمد هاني الكتبي/ 1972م.
- 9: ديوان ابن خفاجة الأندلسي (أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله)/ تح: يوسف شكري فرحات/ دار الجيل بيروت.
- 10: ديوان ابن زمرك (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الصريحي/ المكتبة العصرية. لبنان/ 1998ن.
- 11: ديوان ابن زيدون/ تح: كرم البستاني دار صادر بيروت 1964.
- 12: ديوان ابن زيدون/ تح: نديم مرعشلي، منشورات اللبانية للكتاب، وديوانه بشرح تحقيق علي عبد العظيم/ مكتبة نهضة مصر/ 1957.
- 13: ديوان ابن شهيد الأندلسي/ تح: شارل بلا/ منشورات دار المكشوف. لبنان/ 1963م.
- 14: ديوان عبد الكريم القيسي البسطي/ دار صادر بيروت/ 1966م.
- 15: ديوان ابن فركون (أبو الحسين بن أحمد بن سليمان/ تح: محمد بن شريفة/ منشورات أكاديمية المملكة المغربية الرباط/ د.ت.
- 16: ديوان المعتمد بن عباد/ تح: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد/ منشورات المطبعة الأميرية. القاهرة سنة 1951م.
- 17: ديوان الملك يوسف الثالث ملك غرناطة/ تح: عبد الله كنون/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ط2/ 1965م.
- 18: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة/ أبو الحسن علي بن بسام ت 542هـ/ تح: إحسان عباس/ 1978م- 1979م.
- 19: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف/ هنري بيرس/ ترجمة: د. الطاهر أجمد مكي/ منشورات دار المعارف. مصر/ ط1 ذو القعدة 1408هـ- يونيو 1988م.
- 20: طوق الحمامة في الألفة والألاف/ ابن حزم الأندلسي/ قدم له وحققه/ فاروق سعد/ منشورات دار مكتبة الحياة/ 2002-2003م.
- 21: فضائل الأندلس وأهلها/ لابن حزم وابن سعيد/ دار الكتاب الجديد 1968.
- 22: قلاند العقيان ومحاسن الأعيان/ للفتح بن خاقان/ تح: د. حسين يوسف خربوش/ مكتبة المنار. الأردن/ ط1: 1989م.
- 23: لغة الأدب والشعر في كتابات المرأة العربية/ لوسي يعقوب/ منشورات الدار العربية للكتاب ط1/ 1412هـ- 2001م.
- 24: نساء من الأندلس/ أحمد خليل جمعة/ منشورات دار اليمامة. بيروت/ ط1: 1421هـ- 2001م.
- 25: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/ المقرئ (أحمد بن محمد المقرئ التلمساني)/ تح: إحسان عباس/ بيروت دار صادر/ 1968م